لكي يموت وحيداً ...

قصة للكاتب الانكليزي أريك ري

حين أفاق بدا يشعر بنفثات الشمس المحرقة . كانت السماء في الشرق زرقاء بلون الرماد ، ونفض الرجل التراب عن شعره ورقبته ، ودون أية مفاجأة او انفعال خاص ، وعى المكان الذي كان فيه ، وما فعله عشية امس قبل ان يستسلم للنوم . فقوّم نطاقه ، وعقد منديله بحيث يقي رقبته من الشمس ، ثم لبس جوربيه وانتعل حذاءه . وما لبث ان نهض وأخذ يمشي .

وأدرك ان له تسعة وتسعين حظاً في الهلاك ، وربما حظاً واحداً في ان يعيش بعدُ ثماني واربعين ساعة ، واقل من ذلك دون ما ريب . ولكن ليس ما يمنعه من تجربة هذا الحظ ، فهو جدير بذلك . والحق انه لا يملك ان يعمل شيئاً آخر .

وكانت السماء تصطبغ في كل لحظة بلون اشد عذوبة ، بينما كانت صُفرة الفجر تتلاشى . ولم تكن الشمس قد ظهرت بعد في الأفق ، وكانت الصحراء تستيقظ في الشمال والجنوب والغرب وفوقها ظلال خضراء وزرقاء وقرمزية ، ثم اخذت التلال المتموجة تكتسب رويداً رويداً لون الذهب . وتقدم الرجل في خط مستقيم ما امكن نحو الاتجاه الذي كان يفضي إلى البحر على ما يظن . ولقد اختار هذه الوجهة منذ يومين ، حين افترق عن الآخرين .

لقد كانوا خمسة ، عشية أمس الاول ؛ خمسة رجال وطائرة معطلة كانت تُقل بصورة غير مشروعة اسلحة الى افريقيا الشمالية حين سقطت في الصحراء . ولقد قدّر الطيار انهم على مبعدة اربعمئة كيلومتر من أي مكان مأهول . ولم يكن بوسع احد ان يجتاز على قدميه مثل هذه المسافة ، فأخذوا يتشاورون بايجاز ، فقال الطيار الذي كان وحده يعرف اين حطت بهم الطائرة على وجه التقريب :

— لا بد ان هناك واحة على بعد ٣٠٠ كيلومتر الى الشمال الغربي . كانت هناك منذ بضعة اعوام ، ولكنكم تعرفون ان الواحات تجفّ احياناً .

فقال احدهم :

— خير لنا ان نحاول البحث عنها من الا نفعل شيئاً .

فقال الطيار — : ان حظوظ بلوغها في رأيي هزيلة جداً . ولئن كان في تقديري ادنى خطأ ، فقد نمر على مقربة منها دون ان ندري ونتابع طريقنا في العدم .

وكان يتكلم دون ما انفعال . ولم يكن رجلاً يسبغ المأساة على المواقف . فحين عبّرنا في اول هذه المحادثة عن أملنا في ان التي من ينجدنا ، ثم انتهينا إلى انه لن يخطر لأحد ان يسعى للبحث عنا ، نظراً إلى ان جميع الناس يجهلون أمر بعثتنا ، اكتفى الطيار ، وهو انكليزي ذو وجه قاسٍ وخريج المعاهد الكبرى ، بان هز كتفيه لا مبالياً . لقد اختار هذه المهمة ، وانه ليعرف عواقب الاخفاق فيها .

وتساءل رفاقه : ما الذي ينبغي ان نعمل إذن ؟

فأجاب الطيار : نبقى هنا في انتظار الموت . وبوسعنا ان نجلس في ظل الطائرة . فذلك انعم وأرفه .

★

كان الرجل الذي يمشي الآن هو الذي اقترح اتباع وجهة البحر . وقد سأل الطيار عن المسافة فأجابه :

— زهاء ٢٥٠ كيلومتراً ، إذا كان لي ان اثق بتقديراتي .

ثم حدد الطيار فيه عينيه الصغيرتين الزرقاوين المتعبتين وأردف :

— ولكن ما فائدة بلوغ البحر ؟ لو نجحنا في ادراكه ، وهذا امر مشكوك فيه ، فلن نحرز بذلك اي تقدم . فمن النادر أن تمرّ هناك بواخر ، وهي إن مرت

هذه قصة نالت جائزة كبرى في المسابقة العالمية التي أقامتها جريدة « نيويورك هيرالد تريبيون » الاميركية لاختيار اجمل القصص العالمية . وقد اشتركت في هذه المسابقة ثلاث وعشرون دولة .

وقد وقع اختيار « الآداب » على هذه القصة ، بين ست وخمسين قصة عالمية ، فآثرت نقلها الى العربية لما تنطوي عليه من وصف لروح الصراع الذي تفتقر اليه الأجيال العربية الصاعدة أشد ما يكون الافتقار .

فلا تقترب من الشاطيء .

ولم يكن الرجل يعرف لماذا كان يرغب في الاتجاه نحو البحر . ربما كان ذلك لانه هدف اشد اتساعاً ، ولأن الانسان اذا مضى في هذا الاتجاه ، فهو موقن على الاقل بانه لا بدّ مدركه آخر الامر ، في مكان ما . وربما كان ذلك لانه لم يكن واثقاً كل الثقة بتلك النقطة الصغيرة الغامضة على مبعدة ٣٠٠ كيلو متر الى الشمال الغربي . وهو يفكر ان ذلك كان على الأرجح لأنه كان يعرف انه لا محالة سيموت ، وانه يؤثر ان يموت وحيداً .

كانوا خمسة رجال . اما أحدهم فقد لجأ الى الظل المنعكس من بقايا الآلة الطائرة . وأما الثلاثة الآخرون فقد حملوا الحكّ الوحيد الذي كانوا يملكونه وثلاثة ارباع المذخور من الماء والطعام ، وساروا الى الصحراء وهم فيها منذ يومين . اما هو ، فقد ابتعد باتجاه الشرق ، في الفراغ القاحل .

لئن كان عليه ان يموت ، فهو لا يود ان يرى الآخرين يموتون . وهو إذ يكون وحده ، فلن تقع عليه اية تبعة أو اية مسؤولية في ان يقوم باي شيء يحكم بعضهم بان من الخير ان يقوم به او يملي عليه ضميره ذلك . وقبل كل شيء ، لن تكون به حاجة الى ان يتكلم . إنه لا يريد ان يتكلم .

وهو قد أدرك تماماً ما تعنيه مسافة ٢٥٠ كيلومتراً . فلقد قام ذات مرة ، في انكلترا ، بنزهة على الاقدام لمسافة خمسين كيلومتراً ، ومعه زاد خفيف ، فكان يقف في الطريق ليأكل ويشرب ويستريح . ولقد عذبه الالم الذي اضنى قدميه طوال اسبوع . أما هذه المرة ، فليس معه زاد ، وقد نفد ما كان معه من طعام وشراب ؛ والاقليم هنا اشق وآلم ، والشمس لا تلين ابداً ، وفضلاً عن ذلك ينبغي له ان يسير على رمال . إنه قد بدأ يشعر بالاجهاد ، وقد تبقى له ، على اوفر التقديرات تفاؤلاً ، مئة وخمسة وعشرون كيلومتراً ، واغلب الظن انه سيفارق فيها حياته .

★

على ان هناك امراً واحداً كان في صالحه : عناده . وإلا فكل شيء كان ضده . لقد اختار حتى المشي تحت الحرارة المحرقة والاستراحة في اثناء رطوبة الليل — اي عكس ما أوصاه به الطيار .

ولم يكن معه حكّ ، ولم يكن يعرف من امر القمر والكواكب شيئاً . وإنما كان يعتمد على الشمس وحدها ليحكم تقريباً على الاتجاه الذي ينبغي له ان يأخذه . وكان يقول لنفسه متعزياً لو ان كائنات بشرية مرت به لرآها ورأته .

وفيما هو متجه نحو الشمس المشرقة ، اخذ يفكر بانه إنما كان دائماً يفعل عكس ما كان الناس ينتظرونه منه . وأول ذلك عزمه على ان يعيش حياته الخاصة ، ورفضه ان يكون شيئاً آخر غير الذي كان يريد ان يكونه . ولقد شاء ان يقطع الصلات الزوجية التي كانت تثقل عليه ، فقطعها . وشاء ان يهجر منزله فهجره وذهب إلى الشيطان حتى لا يهتم احد بامره . وبينما كان الناس يجهلون حتى وجوده ، كان هو معنياً بجميع هذه الحاجات التي كانت تستولي عليه ، فاكتشف ما كانت تعنيه ، ما كان يرغب به حقاً .

كان يريد الحرية . وقد انطلق ليربح الحرية .

وهو الآن يملكها ، حريته ، حرية اجتياز صحراء قاحلة ، كيلومتراً كيلومتراً ، تحت شمس جهنمية وفوق تراب محرق . ما يشاء من الكيلومترات ، وحيداً ، دون ان يكون هناك من يعاكسه .

وكانت طريقته لتعيين الاتجاه بواسطة الشمس بسيطة . كان الرجل يعرف حدوده معرفة عميقة جداً بحيث لا يتعثر بمشكلات معقدة . كان يكفي ان يقيم ظله وراءه ثم امامه ، من الفجر حتى الغسق . فان اراه ضوء الصباح اتجاه الشرق ، بدأ في المسير ، حتى إذا تلاشى في الغرب وبات لا يميز ظله ، توقف عن المسير . كان هذا كل ما في الامر .

كان هذا كل ما في الامر — بصرف النظر عن إجهاده ، وعن الرمل الذي كان عليه ان يشق فيه طريقه ، كما لو ان قدميه كانتا مثقلتين بالاحمال ، وعن الشمس المريعة الخالدة التي كانت تفري لحمه وتحرق عينيه وتجفف حلقه ؛ وعن العذاب الذي كانت قدماه المرهقتان تكبّدانه اياه ؛ وعن الهواء الجاف الحار الذي كان يؤلمه في رئتيه ؛ وعن الضيق الناتج عن فقدان الماء والملح المتبخرين عرقاً ؛ وعن القسوة التي تفري بها الشمس رقبته من خلال المنديل الذي كان يقيه اسوأ وقايةٍ ؛ وعن طبيعة هذه المحنة الموئسة الفظيعة .

★

وألمت برأسه ، ذلك الصباح ، افكار عديدة ، بينما كان يغذ السير بعناد نحو الشرق . فتارة يفكر في المنظر المحيط به ، وتارة ، ولكن بطريقة أشد غموضاً ، في ماضيه . ولم يكن يفكر في المستقبل . لم يكن له مستقبل .

كان يقول لنفسه : « نحن ، على اننا بشر فيابيننا ، ميّالون الى ان نقيس انفسنا بالنسبة الى العالم فحسب ، اما هنا ، في هذا العدم ، فنحن مُقاسون بالنسبة الى الزمن والمدى اللذين لا نهاية لهما . ويبدو ان تفاهتنا متناسبة عكساً مع اهميتها العظيمة »

واخذت الشمس تلمع فوق الافق . وكانت ترشق الرمل القاحل باشعتها النارية وتبرق وترقص موجاتٍ بين التلال . وفوق الكوكب الكبير كانت تنبسط في جميع الاتجاهات ، على امتداد الافق سماء صافية زرقاء زرقةً لا تصدّق . لم يكن في هذا العالم إلا ثلاثة اشياء : الشمس والرمل والسماء . واحياناً بعض النسيم البليل العابر . واحياناً اخرى بعض الصخور التي تحاول ان تُفسِد رتابة الرمال وتنتصب اثنين أو ثلاثة ، كأنها ظهر سمكة غريبة شهباء .

وكان نادراً ما يرفع رأسه . ولما لم يكن في حاجة الى ان يراقب دائماً ظله ليبقى في الاتجاه القويم ، فقد كان يمدّ بصره الى عشرة اقدام أو عشرين ، وكان ذلك أخف مشقة عليه . وكان يلقي احياناً نظره الى الافق حين يبلغ قمم أعلى التلال ، فيرى انه لم يكن ثمة غير رمال الصحراء الشاسعة . كان يؤثر ان يوجه انتباهه الى نفسه ، وان يحجزها في دائرة ضيقة ويحتفظ لنفسه بحواسّها .

وكان غالباً ما يتركّز في ذاته ، شيئاً فشيئاً ما مرّ الوقت وما تراكم تعبه وتفاقم ضيقه . كان يقيم في عالم لا تنبسط حدوده إلى ابعد من جسمه ، عالم يتألف من جسمه وحده .

★

وخيّل اليه ، في هذا اليوم الثالث من سيره نحو الشرق ، ان افكاره النادرة عن الماضي ، والمشاعر التي احسّ بها حتى ذلك الحين ازاء هذا المحيط الذي لم يألفه ، وازاء ألوان الفجر والغسق الدامي ، وازاء سرمدية هذه المسافات الصحراوية المخيفة ، كانت كلها تجفّ شيئاً فشيئاً في رأسه وجسمه المكدودين .

ولكن لم تكن الآلام الجسمية هي اسوأ الآلام . فقد كان بوسع افكاره ان تخضعه لعذاب افظع حين تقول له مثلاً ان هذه الكيلومترات المئتين والخمسين التي تحدّث عنها الطيار ينبغي ان تفهم على انها في خط مستقيم ، وان المسافة التي قطعت في هبوط التلال وصعودها إنما كانت تطيل الطريق إطالة كبيرة لقد كان من الخير له ان يتجاهل مثل هذه الافكار ، أو لا يقف عندها طويلاً على الاقل .

وكان يستغرق احياناً في حلم أو يشعر انه يحلم على الشكل الأبله الذي يحلم به الناس المحرومون من اي تفكير ، فيبلغ بغرابة ان يُجرّد هذه الحقيقة التي يدعوها جسمه . وكان يلاحظه خصوصاً وهو يرقى أعلى تلال الرمل ، فيشعر لصعوبة تسلّقها بتعب مُجهد . وكان حذاؤه ينغرس عميقاً في الرمل ، وجسمه ينحني الى امام ، والألم ينبعث من كل اركانه تحت وطأة الارهاق . وهو لو وجّه خطواته لاضطر الى التوقف والاستراحة عدة مرات لدى كل منحدر ، والى حشد القوى اللازمة لبلوغ القمة . ولكنه لم يكن يوجّه تصعيده إذا ما بلغ اقسى المنحدرات فهو لم يكن يعرف اين كان يوجد وعيه لشخصه ؛ كان يخيّل اليه احياناً انه بعيد بعيد ، واحياناً اخرى انه في ساقيه . ولكن الساقين كانتا تمضيان في السير ، والقدمين تغوصان ، والجسم ينحني الى امام ، فينتهي آخر الامر الى بلوغ القمة .

واستعاد سيره مرتين أو ثلاثاً دون ما وعي لأي شيء ، إلا لحركة مشيته ؛ لا كما يفعل حالمٌ مستيقظ شارد الفكر في مكان آخر ، وإنما بغيبوبة فكرٍ تامة . كان يُخال انه لم يكن إلا جسماً يحسّ بالحرّ الباهر المؤلم ، ويدرك الجهد والعهود التي استغرقت فكره ، ويشعر بالآلام التي كان حلقه ولسانه يُكبّدانها إياه .. بيد انه كان يعي ذلك كله دون ما ذاكرة ودون اي نظام ، ومن غير انفعال تقريباً ، كما يكون جسمٌ ليس إلا جسماً .

كان موجوداً — وإن الآلة التي كان قد ادارها في بدء النهار لتستمرّ في شق الطريق شقاً اعمى . وإنما شعر بالحَوَر لأول مرة حين بلغ ذروة تلة رملية مرتفعة جداً ، فتوقف لحظة ليرقب المساحات الصحراوية الممتدة امامه على مدى النظر . وكان احساساً غريباً . فقد شعر بتهافت في ساقيه ، وخيّل اليه ان جسمه كله يتراخى ويجنح الى جانب . ثم سقط على الرمل وتدحرج قليلاً على المنحدر قبل ان يتمكن من التماسك . وحين جلس ، لاحظ ان قبضتيه كانتا مشدودتين ويديه مملوءتان تراباً . فجعل يحدّق اليهما شارد الذهن في المبهم ، ثم فرّق بين اصابعه وجعل الرمل الاشهب يسيل . ولم تقرّ في ذهنه اية فكرة بهذا الصدد ، فنهض على قدميه واستأنف سيره . وبعد ان خطا خمسين متراً تقريباً ادرك انه بذل الجهد العنيف ليستطيع الوقوف من جديد .

وبعد الظهر فكر غير مرة في هذا الحور الذي اعتراه .

وكان يقول في نفسه انه من عجب ان يفقد توازنه في حين كان يشعر بثبات ساقيه . وكان قد لاحظ من قبل امراً غريباً : انه بقدر ما كان يمشي كان يشعر بالقوة في ساقيه .

وحين ادركه الحور الثاني ، كانت الشمس تميل الى المغيب ولم يبق له من وقت السير إلا ساعة . ولم يفاجئه هذا الحور عند تمة تلة ، وإنما في منتصف الطريق ، لدى منحدر . وقد حدثت الاشياء بالطريقة نفسها ، دون ما إيذان . ولكنه في هذه المرة وعى ماحدث في ساعة السقوط بالذات ،فاستمسك بطريقة آلية متفادياً من التدحرج . ثم نهض على قدميه ومضى .

وانطفأت الشمس في المغرب ، محرقة بشعاعاتها السماء والرمل ولحمها بالذات . وكان ظلها يمتد امامها فيحول مخضراً ثم ارجوانياً . وللمرة الاولى منذ ساعات طويلة استشعر احساس عزاء خفيفاً . ولكنه سرعان ما فكر بان عليه الا يحس بالعزاء ؛ فقد كانت الراحة تضر به . كانت مهمته ان يمشي ، ان يمشي حتى المستحيل . ذلك كان امله الوحيد .

ولكنه كان يعرف ايضاً انه لم يبلغ بعد نهاية المدرج ، وأنه سينهض غداً على قدميه ويستأنف سيره حتى الليل . وكان يعتقد انه قد جاز زهاء ١٩٠ كيلومتراً . وسيكون باستطاعته بعد اربع وعشرين ساعة ان يقول انه قطع المئتين والخمسين كيلومتراً ، هذا إذا اتيح له ان يرى شمس الغد تغيب .

★

وتلاشى ظله حين اختفت الشمس. ورأى صخرة على مبعدة، فمال قليلاً عن طريقه ليبلغها . وما كان يستطيع ان يفسر لماذا يؤثر النوم إلى جانب صخرة . لم يكن هذا احتماء ، وما كان يرغب فيه ، وإنما كان شيئاً يستطيع ان ينضم اليه ويرافقه . لم يكن كل شعور قد جف فيه بعدُ ، على ما يخيل اليه. والانضمام إلى اي شيء ، حتى ولو كان حجراً ، في هذه الفلاة المنعزلة ، إنما هي حاجة انسانية ما فتيء يستشعرها في نفسه .

وجلس في ظل الصخرة ، فحل منديله عن رقبته وفك نطاقه ونزع نعليه وجوربيه ، وكانت قدماه المتورمتان تقطران ، وكان الدم ممتزجاً بالتراب والوسخ بين اصابعه، وأراح منديله ليتقي الرمل واضطجع .

وظل فاتحاً عينيه لحظة ، وهو متمدد على ظهره ، يراقب ألوان الرمل التي كانت تتحول من الأرجوان البنفسجي إلى الارجوان المخضر . ورأى النجوم تظهر ، ويطل بسرعة قمر عظيم . وفي اللحظة التي اغمض فيها عينيه سقط في النوم كأنما هو يسقط في زوبعة من الظلمات .

وحين استفاق، كانت الشمس قد بدأت تنير نهاراً جديداً وتقذفه باشعتها . ولاحظ انه كان قد ظل نائماً، وأدرك السبب بيسر . لقد كان في وضع صحي سيء جداً ، اسوأ من وضعه عشية الامس . وظل جامداً لحظة طويلة ، وعنده ميل ألا يتحرك ، بعد وأن يضع حداً لهذا الصراع الذي لا طائل تحته . ولكن إرادة خفية قسرته على الجلوس . وشعر تحت وطأة الجهد الذي بذله للنهوض بان جميع عضلات جسمه اخذت تئن كأنما هي دواليب غير مشحّمة . وإذ هو كذلك موهون ، مهتز الرأس تحت ثقله ، يئن خفيفاً بالرغم عنه ، وقر في ذهنه انه أدرك من حبله نهايته . بيد انه نجح في تهيئة معدات الذهاب من شد نطاقه ووضع المنديل حول الرقبة وانتعال الحذاء والجوربين ونجح بعد ذلك في النهوض .

وشعر انه في حالة تقرب من الحلم ، لا يقظة ولا نوم ، وإنما هو سائر بنصف وعي في عالم غير واقعي. وكان يعرج ويتهادى وينوس في عالم يسيطر عليه الالم والحمى . والذي أمسكه على قدميه في العشرين الخطوة الاولى ، إنما هو التفكير بان تصلب اعضائه زائل رويداً رويداً إذا استمر في الحركة .

وكان قد توقع أن يكون للعنف الذي يأخذ به جسمه عواقب وخيمة مع الزمن . ولكنه لم يكن قد تنبأ بان هذا الألم كله وهذا الارهاق جميعه سيسقطان عليه بمثل هذه الفجاءة المريعة. كانا يحدقان به من كل جانب ويهددانه بالهزيمة. ولكنه وجد القدرة على المقاومة، بل على أن يشهر معركة لم يشهر مثلها في حياته ابداً . ذلك ان كائناً بشرياً تملكه رؤيا ما سيظل يعارك ويستطيع ان يعارك بحظ اوفر من العناد ما طغت عليه المشقة والارهاق . حتى يصبح العراك مستحيلاً .

★

أية رؤيا كانت تتسلط عليه ؟ انه بات لا يعرف ذلك جيداً. رؤيا بحر بات لا يستحق ان يدرك . رؤيا اجتياز ٢٥٠ كيلو متراً لا جدوى من اجتيازها . هل كانت إحداهما او كلتيهما معاً ؟ لقد نسي ذلك . انه اضحى لا يعرف لنفسه فكرة ولا حلماً ولا هماً . بات لا يعرف إلا ان يمشي .

ومع ذلك ، فان وضعه كان خيراً مما كان لحظة الذهاب . انه يشعر بتحسن ، وبانه يملك قوة جديدة ، وبان الصراع ضد الألم والارهاق يخف قوة . وبدأت بعض الأفكار الغريبة تتكشف لذهنه . ولم تكن أفكاره ، عند هذا الحد ، تعني إلا المحافظة على نفسه . وتذكر بعض المعلومات التي كان يعرفها عن الصحراء ، وبعض أطراف من معرفة كان يقع عليها بين وقت وآخر في مطالعاته وأحاديثه . فأخذ يفكر بما عساه يصيب الجسم حين يعرض طويلاً في الشمس ، وحين يخسر

الانسان كثيراً من ملحه بالرشحان او حين ترعنه الشمس ؛ ولكن هذه المعلومات لم تكن لتفيده شيئاً . لم يكن يستطيع ان يجد الملح او الماء ، ولا ان يبترد باية طريقة .

وبالرغم من ان تصلب اعضائه قد تراخى قليلاً ، فقد ظلت آلامه حية في بضع نواحٍ من جسمه . وكان من أشدها ألماً يقوم في أعلى فخذيه ، حيث الجلد كان دون ريب مشققاً . ولكن هذا الألم كان يقلقه أقل مما تقلقه حالة عينيه . فقد كان يعمى شيئاً فشيئاً ؛ وقد أدرك ذلك اذ أدار عينيه نحو السماء من جهة الشمس ، فاستحال عليه ان يبقيهما مفتوحتين . ثم أدرك ذلك ادراكاً اوضح اذ نظر الى الصخور والتلال التي لم تكن تبعد عنه كثيراً ، فرأى تعاريج غير بيّنة وزوايا ممحوّة كانت اشكالها تتراقص أمام عينيه في ضرب من غشاوة منيرة .

وسار خافض الرأس ليتجاهل انه كان يعمى . وجعل يتقدم بأبطأ مما كان يتقدم في الأمس ، بالرغم من انه حاول ان يحافظ على خطوة منتظمة ، وبالرغم من ان تلال الرمل التي كثيراً ما كانت تستمهل سيره أصبحت أقل عدداً وارتفاعاً . وشعر بانه ثقيل شديد التعب . وكان ظله الآن ، والشمس في السمت ، يزلق تحت قدميه ، فيشقّ عليه ان يتبع خطاً مستقيما . وكان يعلم انه ان دأب على هذه الخطوة البطيئة ، فلن يقطع الستين كيلومتراً الأخيرة . ولكن لم تكن له حيلة في شيء . انه لم يكن يستطيع ان يقسر ساقيه على ان تتنقلا باسرع مما تقدران .

وقبل الأصيل ، لاحظ انّ تنفسه يشتد عسراً وايلاماً . فعلم انه يقترب من النهاية . وكان حلقه الجاف يحرقه ، وكان يحسب لدى كلّ لهثة أنه يتنفس ناراً ، فأدرك أنه لن يقطع بعدُ اكثر من كيلومترين او ثلاثة في الساعة . وكان رأسه يدور ، وعقله يمتلىء بالأفكار الخيالية العجيبة .

وكان فكره معظم الوقت مخدّراً بحيث انه بات لا يعرف ما كان يفعله ، أهو يمشي بعد أم أنه يتبع ظله . فأحياناً كان ظله يبدو هناك ، وأحياناً أخرى لم يكن هناك . أيكون هذا وهماً ؟ وتوقف مرّة وهو موقن أنه لن يطيق بعدُ ان يخطو خطوة واحدة . وظل جامداً وقتاً طويلا . ولكنه استعاد سيره . كان يجب ان يستمر .

★

وامتلأ سمعه ، لدى النهاية ، بأصوات عديدة ، في صيحات متقطعة ، واضحة حيناً ، بعيدة حيناً آخر ، كأنما كانت تجتاز ضباباً من الافكار . لقد سمع صوت امه واصوات اولاده . وفي مفارقة مفاجئة لم يرَ نفسه وهو يتهاوى في هذا الجحيم الصحراوي من الشمس والرمال ، وانما رأى نفسه وهو يهبط الشارع الرئيسي في مدينته الاصلية ، فيحييه الناس من يمين وشمال ويبسمون له بلطف . ومرتين ، سمع هتافات وتصفيقاً ؛ ولكن هذه الضوضاء كانت تبدو غالباً آتية من بعيد ، فبات لا يسمعها بعدُ بسمعه . وظل يمشي بالرغم من انه قد فقد وعيه تقريباً ، وبات لا يرى أية أهمية لاي شعور من حواسه .

وتغلبت التلة التالية على آخر قواه . ولم تكن إلا تلة صغيرة ولكنها متعرجة . وكان عليه ان يدور حولها ، ولكنه لم يكن يعرف . كان يعرف فقط انها تقوم في طريقه ، فأدرك منها منتصفها ولم يستطع ان يمضي الى ابعد ، وكان قلبه يخفق بمشقة . وكاد يختنق بانفاسه ذاتها ، ولم يكن يستطيع ان يخطو خطوة واحدة وراء ذلك . وحين حاول هوى على صدره . ولم يقم بعد ، وتخبط تخبطاً ضعيفاً ، وارتفع جسمه قليلاً ، ولكن الوعي غادره . وحاول مرة اخرى ، ولكنه لم ينجح الا في الانزلاق على المنحدر . فشعر انه يتدحرج دون ان يتمكن من الاستمساك ، ثم لم يشأ جزء منه ان يعرف شيئاً بعد فقال : « انتهى الامر » وراحت نفسه في غيبوبة .

ولم يعرف اي وقت مر به قبل ان يستعيد وعيه . فشعر بشيء جاف وحار ، كأنه رمل ، يتسلل عبر حنجرته ، فأنفق لحظات قبل ان يدرك بان ذلك ماء دون ريب . وفتح عينيه في الظلام دون ان يعرف ايان كان ، وما كان يهمه ان يعرف ذلك ، بل انه لا يعترف بانه ما زال على قيد الحياة .

وبدا في حقل رؤيته وجه غامض ، وجه ارمد ، كأنما هو معلق في الهواء فوق وجهه . وارتفع صوت حلقي يقول بفرنسية محطمة ثم بالانكليزية :

— اكان هناك آخرون ، ام انك وحدك ؟

فحرك شفتيه ولكنه لم يسمع اي صوت يخرج منهما ، وتكشفت له في ذهنه صورتان ؛ كانت احداهما تريه ثلاثة رجال اما انهم ماتوا الآن او أنجدوا ، وكانت الاخرى تريه رجلاً وحيداً جالساً في ظل طائرة ، ربما كان لا يزال حياً ، ولكن هذه الصورة الاخيرة سرعان ما امحت . لم يكن الرجل يستحق ان يُنقذ .

وتقلص فمه وحلقه المشققان ليبذلا جهداً للكلام ، ثم تمتم :

— لا احد .

نقلها عن الفرنسية : س. ا